# ٥- المحنة

كان الطريق الصحرواي الذي يتمدد على جانبه الفتى خاليا من المارة، وبعد سويعات قَدِمت سيارة من الجنوب تقصد الشمال، ويقودها التاجر "سليم" من قبيلة "العواقير" بواحة "جغبوب"، وقد عُرف عنه حبه للخير والعطاء، فلم يقصد بابه سائل ورده خائبًا في يوم ما.

كان ذاهبًا لشراء بضاعة لمتجره من طبرق، كان الرجل على أعتاب الستين من عمره، عجنته الأيام بمرها وحلوها، حتى صار من كبار التجار بالواحة، منحته الصحراء صلابة العزيمة، وتعلم من قسوتها رقة القلب، فكان يشفق على كل ذوي الأكباد من لدغاتها القاتلة، فكم جرب منها شدة الجفاء، وكم أوشكت في مرات عدة على الفتك به، فقرر التحالف مع بني البشر ضدها، ليفك كرب من تقيدهم الصحراء بأحبال الموت، حتى تعود الأرواح إلى الأجساد بوهج الحياة.

لقد تعلم من تراث أجداده العرب، أن كثرة الكرم تكسر غدرها، وأن إشعال النيران ليلاً بالصحاري كان عادة عربية من أجل البقاء، حتى أصبحت مهمة كل قبيلة من القبائل أن تنقذ من يمر في مضاربها، وتبادلوا الأدوار في حماية البشر، فمن يُنقذ هذا اليوم سوف ينقذه الآخر في الغد القريب.

عندما رأى الشيخ "سليم"الفتى يرقد مصلوبًاعلى قارعة الطريق، والموت يحلق فوق رأسه، همّ لتنفيذ بنود المعاهدة التي أبرمت منذ مئات القرون، كان المسكين على حافة الطريق فوق الرمال الساخنة، كمن يتقلب فوق الجمر،هبط من سيارته، ورفع نصفه الأمامي إلى أعلى، فوجده يرتعش رعشة المحتضر،

الذي نزف ما بجسده من سوائل علي هيئة عرق، تركه ونهض على فوره وسحب "جرة" الماء من سيارته وعاد بها مسرعًا، بلل الشيخ شفتيه بالماء، وأخذ يحركه بعضًا من الوقت، وبعدها عاد إلى "غريب" وعيه، التقط الجرة ووضعها فوق فمه، دون وعي تشبث بها الفتى كالرضيع ، وهويلتقم صدرأمه من شدة الظمأ، وأبى الفتى أن ينزل "الجرة" إلّا وهي فارغة، بعدها حمله "سليم"إلى مقعد السيارة الخلفي وعاد به إلى منزله بمزرعة الواحة، واستدعى له الطبيب كي يمرضه.

مكث الهارب من الهلاك ثلاثة أيام تحت الرعاية الطبية حتى نجا من غيبوبته، دنا منه الشيخ "سليم"يمسح على رأسه برفق، وعرفه بنفسه، وقص عليه ماحدث منذ إنقاذه حتى هذه اللحظة، ثم التفت نحوه متسائلا :

- الشيخ سليم: ما دفعك نحو الموت يا أخ العرب؟.

- غريب: للفرار من الموت.

- الشيخ سليم: أي موت يا فتى؟

- غريب: موت العاطلين عن العمل، يتخبطون في الفراغ القاتل واللهو، هربت من شبح الضياع كي أبحث عن الحياة.

- الشيخ سليم: لا أدري ماذا أقول لك يا ولدي، ولكن عليك أن تعي أن الفرار من الفقر يحتاج إلى التريث، فالمجازفة بالأعمار مرفوضة، وفي جميع الأحوال مادمت تخرج تبحث عن الرزق الحلال فلن يضيعك رب السماء أبدًا.

استضافه الشيخ "سليم" أسبوعين، بكل ود وكرم، وبعدها استأذنه "غريب" للرحيل نحو طرابلس ومنها إلى إيطاليا، حاول منعه من رحلة الهلاك، عرض عليه العمل معه في مزرعته دون جدوى، فأوكل إلى أحد غلمانه مهمة توصيله إلى طرابلس بسيارته، وانطلق الفتى حيث قدره المحتوم.

وصل إلى"طرابلس غرب"عاصمة ليبيا، وأكبر مدنها، والتي توصف بـ"عروس

البحرالأبيض المتوسط" لجمال بساتينها ومبانيها البيضاء، ولأن المدينة مقامة على رأس صخري مطل على البحرالأبيض المتوسط مقابلا لرأس الجنوبي لجزيرة صقلية، جعلها هذا القرب مقصدًا للمهاجرين نحو أوروبا.

والتقى الفتى بالمهرب، وكان رجلا بلا قلب، غليظ المشاعر، ورغم ذلك لا تبدو على وجهه تلك الغلظة، جراء دفنها في حديث كاذب، وضحكة شديدة النعومة، فكانت بشرته البيضاءعلى عكس سواد قلبه، وعيونه الخضراء نقيض جفاف خلقه، فكان المخادع كحية رقطاء، تجمع المال، وتنفث السم في الأعمار، وبعد مفاوضات شاقة طلب منه٥٠٠ دولار مقابل نقله نحو الضفة الأخرى للمتوسط، دفعها المسافر عدًا ونقدًا.

في الماضي كان "غريب"خلال عمله بالفنادق السياحية بمصر، يدخر "البقشيش" الذي يأخذه من السياح، علاوة على استبدال ما يتبقى من أجر بالجنيه بالدولار، استعدادًا وتحسبًا لمثل هذا اليوم، وقد جمع خلال العمل بالأجازات الصيفية طوال سنوات الدارسة الجامعية نحو ١٥٠٠ دولاراً، كانت هي كل عدته للسفر.

وبعد أن نقد الوسيط ثمن الرحلة، وتحسبًا للمخاطر دس الباقي داخل كيس بلاستيكي سميك مع جواز السفر، وربط الكيس ربطًا محكمًا، ثم لفه حول بطنه بحزام متين، وأبقى في جيبه بعض الدولارات التي تكفي ليلته.

كان الفوج الهارب من القحط معظمه من الدول الإفريقية المتاخمة لدولة ليبيا، ومعظم المهاجرين من مالي، وتشاد، وإفريقيا الوسطى، والصومال، وإرتريا، والسودان. فالقارة السمراء تعج بملايين الفقراء الذين يبحثون عن الخبز بين أطلال الشقاء، وهذا هو لسان حال المقتولين بالعوز، فتدفعهم الفاقة نحوالهرب من طعنات الجدب إلى حضن الرخاء، لعل ضفاف أوروبا تمنحهم صبحًا جديدًا.

وقُبيل السفر تعرف"غريب"على"آدم"من دولة السودان، وكان شابًا نحيلاً رقيقًا، تبدو عليه آثار سوء التغذية، وجاء مثله يرغب في الهجرة نحوأرض

الشمال، قضي معه اليوم السابق للسفر، وكان نعم الرفيق، فالدم الذي يجري في عروقهما، قد يكون من ماء واحد، ماء النيل الزلال، تولّدت بينهما ألفة وحميمية كأنما يعرفان بعضهما البعض منذ أمد بعيد.

تناول مع "آدم" وجبة الغذاء، وسمع منه كل أخبار الشمال والجنوب، لمس كل منهما في الآخر روح الأخوة، فمر الوقت العصيب سريعًا.

يتطلب الوصول إلى إيطاليا انطلاقا من ليبيا، قطع مسافة تقدر بنحو١٩٠ ميلاً بحريًا تقريبًا، وهي أقل مسافة بين"طرابلس"وجزيرة "لامبيدوزا الإيطإلية"،وعادة ما تتم رحلة الموت على متن قوارب مطاطية أو سفن متهالكة، لاتقوى على مواجهة هيجان البحرإذا زمجر، وتسير بسرعة أربع عُقد في الساعة عندما يكون الطقس مواتيا. تحرك الركب تحت جنح الظلام، للهروب من الرقابة الجوية المفروضة على البحر لمكافحة الهجرة غير الشرعية نحو الشواطئ الغربية من قبل الطيران الإيطالي، بيد أن مكمن الخطورة في مثل هذه الرحلات أنها غالبا ما تنتهي بالموت، وتصبح أعماق البحرهي المقابرالجماعية للمعذبين في الأرض.

ومع هذا يختار الحالمون بكسرة الخبز أن يقامروا بأعمارهم مع القدر، وقبل أن تدور عليهم الدائرة كالطواويس، تجدهم يضحكون ويمرحون كالأبقارالهائجة، والتي تمشي نحو أعتاب المذبح الآلى للذبح معصوبة العينين، أو يرقصون رقصة الموت الأخيرة على هدير الأمواج الهائجة، ومن فرط الأمل المزيف يستبعدون فكرة الفشل، الغريب أنك تجدهم قادمين نحو المغامرة يقاتلون الخوف بالوهم.

كانت الرحلة المشئومة فوق سفينة من سفن الصيد البالية، والتي أصبحت لا تصلح للصيد الحديث، فاشتراها المهربون لتعمل في قوافل التهريب البشرية نحو إيطاليا، تحركت السفينة يقلها نحو مئتين من المهاجرين، وكان بجوار "غريب" أسرة بائسة الحال من دولة "مالي" الصحراوية، الزوج كان ذا بشرة قمحية فاتحة، من عرب الطوارق، أما الزوجة فهي إفريقية شديدة السواد ذات

عيون خضراء، وملامحها تفور بالأنوثة والبهاء، رغم جفاف جلدها من شدة القحط، وترقد على حجرها صغيرة ذات ربيعين، تعبث بشعر أمها المفتول كما الحبال، كان وجه الطفلة"هند" يشع بالألم والجمال، وتقاطيعها كملامح أمها الساحرة، بيد أنها هزيلة ويكاد عظمها أن يطفو فوق الجلد من شدة الفقر، وسوء التغذية، كان البؤس سمة بارزة على جبينها، وعلى ما يبدو كانت مرارة الحرمان تدق كبد الصغيرة بمطارق القسوة الصخرية فيخرج أنين الجوع منها كحشرجة المحتضر.

وبعد سويعات وفي عمق الليل البهيم، بدأ الجوع يتسلل نحو بعض الركاب فوق ظهر السفينة، فأخرجوا ما معهم من طعام، فقلدهم الباقون بالإيحاء، وبدأوا في تناول الطعام، كانت الإضاءة خافته، ومرة أخرى وقعت عين"غريب"على الأسرة "المالية"، وقد دفعه الفضول إلى التلصص عليها، فوجد أن كل ثروتهم رغيف خبز يابس أخرجته المرأة من الحقيبة، ثم كسرته إلى نصفين، ودست النصف الأول تدخره للوجبة القادمة، أما النصف الآخر فقسمته على ثلاثتهم، أمسكت الطفلة الصغيرة لقمتها تمصها فهي لا تستطيع قطمها، لأنأسنانها لا تقوى على طحن الخبز القديد.

انشق قلب الفتى حزنًا على الصغيرة، فمثلها في بلاد الشمال الغنية يمرحون ويلعبون ويأكلون ما لذ وطاب، حبس دموع الحسرة في قلبه، حتى لا تنتشر المرارة فوق الهواء فتفسده، على فوره أخرج "غريب"من حقيبته خبزًا طريًا وجبنا وبعض العصائر المحفوظة ووضعها أمام الأسرة، رفض الأب في البداية تعففًا، بيد أن "غريب" لم يمهله أن يرفض بأن دس في يد الطفلة قطعة خبز طرية فالتهمتها لفورها من شدة الجوع، فقطع بذلك كل سُبل المكابرة على الرجل، وتدفق عبق الامتنان من العيون المقتولة بالحرمان كالسيل يشكر الفتى على حسن كرمه.

وبعد أن امتلأت البطون الخاوية، انفرجت الأسارير المغلفة بالشقاء، فقد تذوقت الأسرة البائسة طعم الشبع لأول مرة منذ بضعة شهور، فقد كانت كل وجبة من الوجبات السابقة مكونة من كسرة خبز وشربة ماء، أما الساعة فقد

أكلوا طعامًا شهيًا، وكان سبب هذا التقتير أنهم يدخرون من الفتات ما يكفي لأجرة الهرب من لهيب الصحراء نحو رغد الشمال.

وفي غمرة من المشاعر الدافئة، توطدت العلاقة بينهم، وبين الفتى خلال سويعات قليلة فوق السفينة، فأصبح كأنه واحد منهم، وصعدت ابتسامة الشبع فوق وجه الصغيرة"هند"تطفئ لوعة الحرمان، وانطلقت دفقات من المرح فوق شفتيها، فصارت تداعب الدنيا، وتضحك بملء فيها، فتزرع السعادة زرعًا فوق الدجى، فيكاد الرضا أن يكسي وجه الليل الحزين، وعندما لمس الحنان القلب الأخضر، رفرفت أجنحة الأمل تعانق البراءة، وراحت الطفلة تلعب مع "غريب" فنثرت طهر الطفولة فوق أمواج البحر الغادرة.

كانت الهواجس تطارد العقول من فينة لأخرى، وكان التساؤل هل سينجوموكب الحائرين من الغرق؟ أم سيلحق بقوائم الضحايا وفد جديد من الهالكين، وإذا نجو هل سينجحون في دخول أوروبا والعيش فيها بسلام؟

ضربت الأفكارالمغموسة في الحزن رأس الفتى، وأصبح كغيره متوجسًا، وخائفًا من غدر البحر متى زمجر، فالركب من حوله على تباين أوطانهم يجمع بينهم خيط رفيع من الأمل، وتوحدهم وحدة المصير.

وجرّاء المشقة في السفر غلب النعاس أعين الكثيرين، فنام من نام، وبقي قليلهم ينتظر سلامة الوصول، ومع تباشير الصباح، غطت خيوط الشروق الأولى أضواء المصابيح الكهربائية على الشاطئ الشمالي للجزيرة، وأصبحت على بعد ثلاثة كيلو مترات تقريبًا، وعلى حين غرة انطفأت البهجة بصراخ حاد يتصاعد من غرفة القيادة، عندما اشتعلت نارفي محرك الدفع ثنائي الشوط، بسبب القصور في إجراءات السلامة والصحة المهنية، وانتقلت النار إلى خزانات الوقود، ثم إلى ىسطح السفينة، وراحت تأكل كل ما هو قابل للاشتعال، ولم تستطع أطقم الملاحة الهزيلة مكافحة الحريق جرّاء تلف أجهزة الإطفاء، فتأكد للجميع أن الموت قادم لا محالة فهرول الركاب نحو أطواق النجاة التي تستعمل في حالات الطواريء، وكانت لا تكفي سوى نصف الركاب، فدارت بينهم معارك

حامية الوطيس من أجل الفوز بسترة للنجاة، فأخذ الركاب يتصارعون على ظهر السفينة، ويخطفون من بعضهم البعض سترات النجاة، ورجحت كفة الأقوياء أحيانا، بيد أن الضعفاء سرت في أوصالهم قوة خارقة جرّاء التعلق بالحياة فماتت أيديهم قابضة على أطواق النجاة، وبسبب سخونة المشاجرة، لم يتمكن الكثيرون منهم من ارتداء السترة فسقطوا في البحر غرقا، أو سافتهم النيران بلهيبها نحو القفز في البحر، ليطفئوا الحريق الذي اشتعل في جلودهم بالماء، فقضوا نحبهم حرقًا وغرقًا.

شلّ هول المفاجأة عقل "غريب" عن الحركة، وعاد شبح الموت يلاحقه من جديد، ولايدري ماذا يفعل، ولحظة تمايل السفينة على جانبها الأيمن شاهد الأسرة المالية تسقط في البحر والأم تصرخ :

- الأم: أين هند؟ ابنتي أين أنتِ ؟ أين ابنتي؟

وظلت هكذا لبضع لحظات قبل أن تغوص في الماء، لتلحق بزوجها إلى قاع البحر، في الجانب الآخر كانت النيران تشتعل في ثياب "هند"فوق شطر السفينة الذي ما زال يغُص ببطء في الماء، كانت تصرخ، وهي معلقة من ملابسها في خطاف حديدي، هرول نحوها "غريب" كما الصقر يصارع الموت، وجذبها فوجد جلبابها قد ذاب من النار، فاشتعلت في طرف قميصه، حضن الطفلة يصرخ معها من آلام الحريق ليقفز بها في البحر، فأطفأت المياه النار، بيد أن ملوحة الماء اشعلت آلام الجلود الذائبة في ساق الصغيرة ويد الفتى.

ظل هكذا يتألم لبضع دقائق، ولا يعلم ماذا يفعل، كان قابضًا على الصغيرة بشدة خوفًا من أن تفلت منه، فتهوي في قاع البحر السحيق الذي يمتد عمقه إلى ما يقرب من أربعة كيلو مترات، كان يدرك أنها لو سقطت منه لن تعود للحياة مرة أخرى، بعد طول تفكير تخلص من ملابسه حتى لا تعرقله، ووضع القميص في فمه، أما البنطال فقد خلعه ووضع هند فوق ظهره، وربطها به بصعوبة بالغة، فأصبحت رأسها فوق رقبته، ثم لف القميص حول ساقيها من الخلف وربطه حول جسده، كانت شدة الرباط تجعل حرف القماش يغوص

في جلدها المهترئ فتصرخ، ولكن خوفه عليها من الغرق جعله يحكم الرباط، واتجه يعوم نحو جزيرة "لامبيدوز" لعله يدرك الحياة.

ظل يسبح دون أن يدري ما هو مصيره، حتى أصابه الإعياء بعد ساعة من العوم، شعر بأنه فقد القدرة على تحريك ذراعه المحترقة، وتراجعت قدرته على المناورة، فلا يستطيع الدوران للعوم على ظهره للراحة والتقاط الأنفاس ،لأنه يحمل الصغيرة فوق ظهره، كان عليه أن يتخلص منها كي ينجو، ويصل نحو الشاطئ، وإلا غرقا معًا، والمنطق يقتضي إنقاذ ما يمكن إنقاذه، والموت معها حماقة، والتخلص منها ندالة، بات الفتى في عرض البحر لا يدري ماذا يفعل، وكان مقسومًا بين شهامة لا تجدي، ورحمة لا تفدي، تُرى بماذا يقرر؟ وسط هذا الانهيار، ولا أحد يتوقع ما هو القادم.